يحدونا الأمل بأن تكون بقية الأطراف صادقة أيضاً في تعاملها وإيفائها بما التزمت به، وسنعمل بكل الإخلاص والجدية على تغليب مصلحة اليمن وبما يحافظ على وحدته وأمنه واستقراره.

علي عبدالله صالح

14 أكتوبر
14 OCTOBER
يومية - سياسية - عامة
www.14october.com
Email: 14october@14october.com

www.14october.com

من ثمرات الاستـــــــــ

جامعة عـدن.. الـــــ

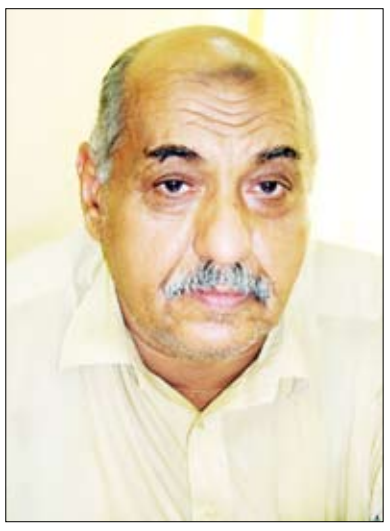

الدكتور /
علوي عبدالله طاهر

أولاً: البذور:

كانت فرص التعليم في عدن معدومة على مدى مئات السنين، باستثناء بعض الكتاتيب وبعض المدارس الابتدائية المحدودة التي بدأت تظهر بعد الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918)، حيث كان التعليم في عدن قبل ذلك يقوم على النظام التقليدي غير النظامي، ويعتمد على ما يعرف بالكتاب (المعلامة) وهو نظام تعليمي حر، يقوم به معلم فرد، يتولى التدريس فيه دون تدخل من الحكومة، ويتميز هذا النوع من التعليم بعدم خضوعه لسن عمرية محددة، وليس له نظام قبول معين، ولا سنوات دراسية محددة، ويركز على تعليم القرآن الكريم ومبادئ القراءة والحساب، وتعليم الخط على نماذج رديئة يكتبها المعلم، وكان لا يتعاطى تعليم الأطفال في الكتاب إلا من سدت في وجهه أبواب الرزق، ويئس من وجود عمل آخر لكسب العيش. (1)

ويعتمد التدريس في الكتاب على الحفظ والتلقين، فيقوم المعلم بالإشراف على تلاميذه الذين يتولى كل واحد منهم القيام بمهمة تختلف عن مهام الآخرين، فمنهم من يكتب في اللوح، ومنهم من يحفظ الدرس، ومنهم من يسمع، وهكذا، ولم يكن باستطاعة المعلم أن يعلم الأطفال جميعهم في وقت واحد، لأن كل واحد منهم يسير في ناحية من المصحف تختلف عن الآخر، لذلك هو يشغل زيداً بعمرو، فيكلف الكبير بتعليم الصغير، وربما يستعين ببعض أبنائه لمساعدته.

وكانت الكتاتيب (المعلامات) أكثر مؤسسات التعليم التقليدي انتشاراً في عدن، إذ لم تعرف عدن ما عرفته بعض المدن اليمنية الأخرى من مؤسسات تعليمية كالأربطة والمدارس الدينية التي وجدت في زبيد وبيت الفقيه وحضرموت، باستثناء رباط الشيخ أبوبكر محمد بن حسين بن مرزوق الصوفي، ورباط الشيخ أحمد الرفاعي بحارة حسين في عدن (2).

وكانت الكتاتيب هي الوسيلة الوحيدة للتعليم قبل ظهور التعليم النظامي، واستمرت في الانتشار حتى بعد ظهور التعليم النظامي. وقد انتشرت (المعلامات) أو الكتاتيب في عدد من أحياء عدن، وشملت معظم المساجد، وأخذت في التطور منذ ما بعد الحرب العالمية الأولى، حيث أخذت المعلامات تتطور إلى حد ما عما كانت عليه قبل الحرب، فصار الأطفال يجلسون على مقاعد خشبية، وارتقى منهج الدراسة فيها، بحيث أصبح الطفل الذي أنهى المعلامة قادراً على العمل لدى بعض التجار أو في الدكاكين لتدوين حساباتهم، في ظل الأمية المطبقة.

ومن أشهر المعلامات في عدن، التي ظهرت في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى واستمرت إلى الستينات من القرن العشرين، معلامة محمد الشنقيطي، في حارة اليهود (حسن علي) ومعلامة الشيخ محمد علوان العولقي، في حارة حسين، ومعلامة الشيخ محمد الحوزي في حارة القطيع، ومعلامة السيد محمد عبدالله طاهر النجدي وأخيه في مسجد بانصير بشارع المتنبي، ومعلامة الشيخ محمد المالكي في حارة العيدروس، وكلهن في منطقة كريتر، أما في منطقة المعلا فإن أشهر المعلامات التي ظهرت فيها كانت معلامة الشيخ درهم في مظلة مقبرة المعلا دكة، ومعلامة الشريف، وهي خاصة بالصومال، ومعلامة الفقيه سالم عبدالله الكوري في شارع البحتري، وفي منطقة التواهي وجدت معلامة الشيخ الهتاري، ومعلامة الشيخ عبدالفتاح، ومعلامة الشيخ محمد القاضي، أما في منطقة الشيخ عثمان فكانت معلامة الشيخ أحمد عوض العبادي، ومعلامة الفقيه حيدر، ومعلامة الفقيه عثمان، ومعلامة الفقيه كليب ومعلامة السيد قاسم وغيرها. (3)

وقد لعبت المعلامات في عدن دوراً مؤثراً وكبيراً في التخفيف من الأمية بالرغم من أساليبها المتخلفة، فقد كانت الملاذ الوحيد لكثير من الناس في ظل الجهل المخيم على عموم اليمن.

أما التعليم النظامي، فقد كانت أول مدرسة ابتدائية افتتحت في عدن بعد مضي أكثر من سبعة عشر عاماً من الاحتلال أي عام 1856م، ولكن الاستعمار أغلقها بعد سنتين فقط من افتتاحها. (4)

وكان الهدف من تلك المدرسة هو التبشير بالدين المسيحي كجزء من السياسة الاستعمارية حينذاك، التي كانت تستهدف القضاء على هوية البلدان التي تستعمرها. وكما هو معروف فإن عدن وقعت تحت سلطة الاحتلال البريطاني عام 1839م، ولكنها ظلت مرتبطة بحكومة الهند حتى عام 1936م، حينها شعر الانجليز أن الهند على وشك أن تنال استقلالها فبادر إلى ربطها بوزارة المستعمرات البريطانية.

وكان الانجليز قد عملوا على تشجيع الهجرة الأجنبية إلى عدن لذوبان الجنس العربي وإيجاد خليط من السكان ذوي ميول مختلفة، ومصالح متباينة، يرتكز عليهم الاستعمار في تسيير مصالحه، إلى جانب ما يحدثونه من خلل في صفوف الوطنيين من أبناء الوطن. وكان من نتائج تلك السياسة أن وفدت إلى عدن أعداد غفيرة من الجنسيات المختلفة أتى بهم الاستعمار من مستعمراته المتعددة، أو من دول (الكومنولث).

وقد أثر وجود هذه الجنسيات على الوضع التعليمي في عدن، وهو ما أدى إلى فتح عدد من المدارس لتلبية حاجة المستعمرة من الموظفين الذين يجيدون اللغة الانجليزية ليتمكن من التفاهم معهم، وبواسطتهم يستطيع تسيير أعماله، وتنفيذ مخططاته. وفي سبيل تحقيق ذلك افتتح مدرسة ابتدائية في عدن عام 1866م (5). وكان معظم التلاميذ الذين التحقوا فيها من جنسيات متعددة، ونسبة العرب فيهم ضئيلة جداً، لاتتجاوز 8 ٪ من عدد الطلاب في المدرسة (6). وإلى جانب هاتين المدرستين وجدت بعض المدارس للجاليات الأخرى، فقد وجدت مدرسة للصومال في المعلا، وأخرى لليهود في كريتر. وركز الانجليز اهتمامه بمدارس المبشرين، وحاول أن يفتح أبوابها للأيتام والمنبوذين بهدف تنصيرهم فيما بعد. (7)

وفي الفترة بين عامي 1885 – 1900م أي خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر لم يفتتح الانجليز غير مدرستين اثنتين، الأولى في المعلا عام 1889م والأخرى في التواهي عام 1880م. (8) وافتتحت خلال هذه الفترة أيضاً مدرستان تبشيريتان كاثوليكيتان.

ولقد كان لارتباط عدن بالهند أثره البالغ في الوضع التعليمي، حيث كان معظم المدرسين من الهنود، وكان النظام التعليمي تابعاً للهند، وهو ما أدى إلى ضعف اللغة العربية، وتدني الثقافة العربية.

وخلال فترة ارتباط عدن بالهند كان التعليم في عدن محصوراً على الأجانب الوافدين إلى عدن، وهم من جنسيات مختلفة، أما أبناء البلد من العرب فلم يكن أمامهم أية فرصة للتعليم باستثناء الكتاتيب أي (المعلامات). (9)

واستمر هذا الوضع المتردي للتعليم إلى أن تخلصت عدن من تبعيتها للهند، وصارت تتبع مباشرة وزارة المستعمرات البريطانية، ومن أسباب هذا التردي أن اقبال السكان على التعليم كان ضعيفاً، والمطالبة به كانت محدودة، وانتشاره محصوراً في أسر قليلة، غير أن حالة التعليم بدأت تشهد نوعاً من التحسن منذ تولى إدارة المعارف في عدن الأستاذ عطا حسين، في الفترة ما بين 1921 – 1930م حيث قام بإدخال تحسينات لاباس بها في نظام التعليم، فقد استطاع أن يدخل بعض الأساليب الحديثة في التعليم، وفي عهده أعد الطلبة لأول مرة لامتحان شهادة (سنيركامبردج) وفي عهده كذلك أرسلت أول بعثة طلابية إلى بريطانيا، عاد بعضهم ليعملوا مدرسين فيما بعد في مدارس عدن، كما تم في عهده إدخال بعض التغييرات في المناهج التعليمية، إذ تمكن من تطوير التعليم الابتدائي، وعمل على تعيين الأستاذ كامل عبدالله صلاح مديراً لأول مدرسة ابتدائية حديثة عدن، والذي بدوره اعتنى عناية خاصة باللغة العربية. (10)

وعطا حسين هذا هو أحد الهنود المسلمين المؤهلين تأهيلاً عالياً، وكان قد أرسى في عدن قاعدة للتعليم النظامي الحديث، وتولى بعده نظارة المعارف الأستاذ الفاروقي، وهو هندي أيضاً، وعمل الفاروقي على وضع برامج مفصلة للتعليم الابتدائي والثانوي، وادخل نظام الامتحانات المشتركة، واهتم بالمكتبة المدرسية، كما افتتحت في أيامه أول مدرسة ابتدائية للبنات. (11)

وتحت إلحاح المواطنين ومطالباتهم بالاهتمام باللغة العربية أدخلت اللغة العربية ضمن مواد الدراسة في الصفوف الأولى من المدرسة الثانوية، وكان آخر ناظر هندي لعدن قبل تبعيتها لوزارة المستعمرات البريطانية عام 1937م هو محمد نورا، وفي عهده أدخلت الرياضة المدرسية إلى التعليم، وصارت الألعاب الرياضية جزءاً من الدراسة.

وإذا أخذنا أعداد الطلبة الموجودين في مدارس عدن في النصف الثاني من الثلاثينات في القرن العشرين، أي قبل انضمام عدن إلى وزارة المستعمرات البريطانية، سنجد أنها كانت قليلة للغاية، فالمدارس الحكومية لم يزد عددها على أربع مدارس (12) أما المدارس المعانة فكانت ست مدارس فقط .(13)

وفي عام 1935م، أي قبل انتقال تبعية عدن إلى وزارة المستعمرات بعامين تم افتتاح (كلية أبناء المشايخ) في جبل جديد، وكانت هذه المدرسة مخصصة لتعليم أبناء المشايخ والأمراء والعقال، واستمرت حتى عام 1952م حين أقفلت أبوابها لتأخذ كلية عدن في الشيخ عثمان دورها. وكان الغرض من هذه المدرسة تخريج جيل من أبناء السلاطين والأمراء يعرفون قدراً من اللغة الانجليزية ليتمكن الضباط الانجليز من الاتصال بهم بسهولة، إلى جانب إعدادهم ليكونوا حكاماً موالين للسلطات الاستعمارية مستقبلاً.

وفي عام 1937 انفصلت عدن عن إدارة الهند والحقت بوزارة المستعمرات البريطانية، وبعدها بعامين اسندت إدارة المعارف في عدن إلى أحد البريطانيين ويدعى (بي، جي، انتبروا p. j. autte- borough) والذي نشط لترقية التعليم في المستعمرة، وعمل على النهوض به، فاستدعى جملة من رجال التعليم من الخارج، وزاد من أجور المعلمين، وفتح كثيراً من المدارس الأولية، وزاد ما يصرف من المال على التعلم(15)

وفي عهد (انتبروا) تم دمج الصف الأول الابتدائي المعروف صف الطفولة بالمرحلة الابتدائية لتصبح خمس سنوات بدلاً من أربع كما تم تحديد عمر سن القبول بالمدرسة إلى 8 سنوات للصف الأول ويمكن رفعه إلى عشر سنوات بالنسبة للقادمين إلى عدن من أماكن أخرى. وادخل التربية الإسلامية ضمن الجدول الدراسي، واستخدام اللغة العربية لغة للتعليم في حدود ضيقة، واعفاء البنات من الرسوم المدرسية وتم التعاقد مع عدد من المدرسات العربيات المؤهلات للتعليم في مدارس البنات.(16)

وفي عهده تم إلحاق صفوف الثانوية الصغرى بالثانوية العليا في منطقة (الرازمت) في الخليج الأمامي، وانشئت عدة مدارس ابتدائية للبنين في كل من التواهي، والبريقة، والشيخ عثمان، والمعلا، ومدرسة للبنات في عدن، وأخرى في المعلا.(17)

وكان (انتبروا) قد تولى إدارة المعارف في عدن في الفترة من عام 1937 ـ 1947م أي لمدة عشر سنوات، استطاع خلالها إحداث نقلة في التعليم، وتطوير التعليم الثانوي إلى الحد الذي وصل فيه التلميذ مستوى يؤهله لامتحانات شهادة (كامبردج).(18)

وفي عهد (انتبروا) بدأ الاهتمام لأول مرة بتأهيل المعلمين وتدريبهم وتحسين أحوالهم، والعمل على زيادة عددهم. فقد جلب عدداً من المدرسين من بعض البلدان العربية، وأرسل بعض مدرسي المدارس الثانوية إلى بعض البلدان العربية للتدريب على التعليم، وتعاقد مع عدد من المدرسين العرب للعمل في مدارس عدن، ووضع هيكلاً جديداً لأجور المعلمين والمعلمات، وأرسل عدداً من المدرسين للتدريب في السودان.. وغيرها من البلدان.(19)

ونستطيع القول إن التعليم في عدن، لم ينتعش إلا في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية (1939 ـ 1945) وذلك نتيجة الضغوطات والمطالب الملحة من قبل الأهالي لتحسين التعليم، مما اضطر سلطات الاحتلال لتوفير الحد الأدنى من التعليم في المستعمرة، إذا كان عدد المدارس في عدن عام 1948م حوالي سبع عشرة مدرسة، بما فيها الكتاتيب (المعلامات) وتضم حوالي 5545 تلميذاً.(20)

وبمقارنة هذا العدد مع عدد سكان عدن وقتها حسب الإحصاء الرسمي لذلك العام البالغ عددهم 80,516 نسمة، فان الذين يتعلمون القراءة والكتابة لا تزيد نسبتهم عن 6 ٪ من السكان. (21)

وفي عام 1948 جرى وضع برنامج محدد شمل بناء مدرستين ثانويتين إحداهما للبنين، وهي التي اطلق عليها (كلية عدن) افتتحت عام 1952، والأخرى للبنات في خورمكسر، افتتحت عام 1956، وفي الفترة ذاتها تم افتتاح المعهد الفني بالمعلا الذي بناه (البس) لتخريج عمال مهرة في الكهرباء والميكانيكا وغيرها.(22)

وكان الأهالي قد شكلوا ضغطاً كبيراً على السلطات في المستعمرة لفتح المزيد من المدارس لاستيعاب الأعداد المتزايدة من التلاميذ، إلا أن التوسع في بناء المدارس الحكومية ظل محدوداً للغاية، ومع ذلك وضعت السلطات شروطاً تعسفية لقبول التلاميذ في المدارس الحكومية، منها أن يكون التلميذ من مواليد عدن، وحاملاً شهادة ميلاد صادرة من المستعمرة لغرض عرقلة أي تلميذ من أبناء ريف المحميات أو الشمال من دخول المدارس كجزء من سياسة الاستعمار، لمنع انتشار التعليم والحد من التوسع في نشر المعرفة بين السكان، غير أن الأهالي تعاونوا فيما بينهم وبنوا العديد من المدارس الأهلية لاستيعاب التلاميذ الذين رفضتهم المدارس الحكومية.

وكانت بريطانيا قد عملت على تشجيع بناء المدارس التبشيرية ومدارس الجاليات الأجنبية وفق نظام الإعانات المالية للمدارس غير الحكومية فانتشرت بعض المدارس التابعة للارساليات الأجنبية في كل من عدن والتواهي والشيخ عثمان. وكان الطلبة المسلمون الذين ينهون الدراسة الابتدائية في بعض مدارس عدن، لا تتاح لهم فرص الالتحاق بالمدارس الثانوية الحكومية لقلتها وعدم قدرتها الاستيعابية، فيضطرون للالتحاق بمدارس الجاليات الأجنبية، غير أن الأهالي كانوا يترددون في الحاق أبنائهم بتلك المدارس خشية تنصرهم، فكان بعض الأهالي يحذرون من التحاق أولاد المسلمين في تلك المدارس، وبالذات البنات، خاصة بعدما قامت احدى الارساليات الأجنبية بفتح مدرسة للبنات، وهو ما شجع الأهالي للمبادرة في إنشاء عدد من المدارس الأهلية.

وكانت أول المدارس الأهلية في عدن هي مدرسة بازرعة الخيرية الإسلامية التي بناها وأسسها في عدن الشيخ محمد عمر بازرعة عام 1912م وعين لها مديراً هو الشيخ الأستاذ محمد مكي الذي كان قدم من الحجاز واستوطن عدن، وكان يغلب على التدريس فيها الطابع التقليدي، إلى أن تولى إدارتها الأستاذ محمد صبحي في الثلاثينات من القرن العشرين فادخل إليها بعض التحسين في المناهج كما تولى إدارتها في الأربعينات الأستاذ محمد صبحي وهو فلسطيني، تلاه الشيخ علي محمد باحميش وهو عالم دين شهير، وفي عهده كثفت المواد الدينية، وتلاه الأستاذ خليل أبو غبن وهو أردني، حاول أن يدخل بعض التطوير في المناهج والخطط الدراسية، إلا أنه اصطدم بعقليات متزمتة، فارزع عن الإدارة وحل محله الأستاذ عمر باناجة، وتلاه الأستاذ محمد سعيد الصائغ.. وغيرهم. وقد ساهمت مدرسة بازرعة في حل مشكلات عدم استيعاب المدارس الحكومية لمن ليس لديه مخلقة.(23)

وثاني المدارس الأهلية كانت مدرسة الفلاح الإسلامية التي تأسست عام 1936 في شارع الزعفران بعدن، وتولى إدارتها الأستاذ حسين الزباغ الحسيني، الذي كان قد أتى من الحجاز، وساهمت هذه المدرسة إلى جانب مدرسة بازرعة في استيعاب الطلاب الذين حيل بين دخولهم مدارس الحكومة، ويغلب عليها الطابع الديني في مناهجها الدراسية، إلى جانب بعض المواد الأخرى اللازمة للأعمال الحكومية.

ولما كانت الحاجة تقتضي وجود موظفين يعرفون بعض شؤون السكرتارية ومسك الدفاتر والحسابات ونحوها، فكان لابد من إنشاء (المعهد العدني) بمبادرة من ياسين راجمار الذي قام بإنشاء المعهد عام 1927، بصفوف مسائية تستوعب بعض خريجي المدارس الحكومية، وبعدها بنى داراً كبيرة للمعهد عام 1945، خصصها للدراسة في الشؤون التجارية، وأعمال المحاسبة وغيرها. وفي عام 1953 افتتحت مدرسة للبنات ملحقة بالمعهد التجاري أطلق عليها اسم المدرسة الإسلامية للبنات.(24)

وفي عام 1955م قام الشيخ محمد بن سالم البيحاني ببناء المعهد